Diyala Journal
for Human Research
Website:
djhr.uodiyala.edu.iq

مجلة ديالى
للبحوث الإنسانية

p ISSN: 2663-7405
e ISSN: 2789-6838

مجلة ديالى للبحوث الانسانية
العدد (٩٧ ) المجلد (٢ ) ايلول ٢٠٢٣

# الأيديولوجية الشموليّة وتجلياتها في سيرة عبد الله إبراهيم "أمواج"

أحمد سلمان أحمد جاسم  أ.د فاضل عبود خميس التميمي

جامعة ديالى كلية التربية للعلوم الانسانية

*Abstract*

***Judging from the vision of the cultural thinker, literary critic, and academic intellectual "Abdullah Ibrahim", this research deals with the methods of the political authorities and their repressive practices according to the totalitarian ideology they adopted, in order to consolidate their own principles and impose them on pluralistic societies. As Abdullah Ibrahim witnessed the ideological premises and aggressive practices practiced by the Baath Party on Iraqi society and drove it towards self-closure, and the absurd wars the Baath regime waged throughout its rule.***

Email:*ahmadsalman@gmail.com*

Published: ٢٠٢٣/٩/١

Keywords: السيرة الذاتية، عبد الله إبراهيم، الأيديولوجية الشمولية.

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
*CC BY4.0*
*(http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)*

**الملخص :**

انطلاقًا من رؤية المفكر الثقافي والناقد الأدبي، والأكاديمي "عبد الله إبراهيم"، يتناول هذا البحث أساليب السلطات السياسية وكيفية ممارساتهم القمعية تبعًا للأيديولوجية الشمولية التي ساروا عليها، بغية ترسيخ مبادئهم الخاصة، وفرضها على المجتمعات التعددية. إذ شهد عبد الله إبراهيم، المنطلقات الفكرية والممارسات العدوانية التي مارسها حزب البعث على المجتمع العراقي وساقه نحو الانغلاق الذاتي، والحروب العبثية التي خاضها طوال فترة حكمه.

**المقدمة**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسَّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ...

لم يكن "عبد الله إبراهيم" بعيدًا عن مدار وصف إدوارد سعيد لأدوار المثقفين الفاعلين في مجتمعاتهم، حينما قال "يبدو لي أن واحدًا من أكبر أدوار المثقفين في المجال العام هو أن يعملوا كنوع من الذاكرة العامة، وأن يتذكروا ما نُسي أو تم تجاهله... أن يذكّروا الجمهور بالمسائل الأخلاقية التي قد تكون محتجبة خلف صخب الجدال وضجته"[1] بل إن "عبد الله" كان من أوائل الأكاديميين العرب الذي أعادوا النظر في ذاكرة الثقافة العربية، ولا سيما السرديات الكبرى والتراث الأدبي في مشروعيه الكبيرين "موسوعة السرد العربي" و"المطابقة والاختلاف". الذي حاول فيه أن يملئ الفجوة التي خلفتها المناهج الكلاسيكية، متسلحًا بأدوات الحداثة وما بعدها. ورغم انشغاله النهم في مجال تخصصه وتوسعه على اغلب المعارف الانسانية في إعادة ترتيب وبلورة الظواهر السردية قديمها وحديثها، الشعبية والنخبوية. فإنه لم ينسى قول كلمته في مرحلة حبلى بالتحولات السياسية والاجتماعية والثقافية من تأريخ العراق، لتكون خلفية لسيرته الذاتية. الذي لم يكتف برواية أحداث تلك المرحلة فحسب، بل كشف عن حيثيات مخاضها، ومخرجاتها. تلك المرحلة التي بدأت تزامنًا مع مجيئه إلى الحياة، في أواسط القرن العشرين، وامتددت إلى العقد الأول من القرن الاحق. ليصبح فيها شاهدًا ومشاركًا من جهة، وراويًا ومفككًا بعد ذلك من جهة أخرى. إذ أتخذ من ممارسة السلطات السياسية، وتلاعبها بالذاكرات الجماعية، بؤرة سردية؛ كشف بها عن أساليب الهيمنة والخداع، التي آلت ببلاد الرافدين إلى مثلث من العنف والحرمان والضياع. بدءًا من الانقلابات العسكرية، ومرورًا بالايدلوجيا المغلقة، والحروب العبثية، وصولًا إلى فوضى التحرر بعد انفراط المفاهيم المغلوطة لعل بذرة الميول السياسية لـ"عبد الله إبراهيم" ومحاولته دراسة القانون في بداية مشواره في التعليم الجامعي، التي لم تُكتب له بسبب سياقات القبول، أثمرت بعد حين في تفكيكه نظام السلطة، وكشف خبايا قوته الخفية في سَوق المجتمع نحو ايدلوجيا شموليّة متحكمة في مصائر الأفراد والجماعات. وقدم لنا اجابات ملهمة حول أساليب هيمنة السلطة العراقية المتمثلة بـ"حزب البعث"، منطلقًا بما حمله من أرشيف معرفي نحسبه كافٍ؛ في إدراك سيرورة تلك المنظومة، وسطوتها على الذاكرة الجمعية للمجتمع.

الأيديولوجية الشمولية واستباحة الذاكرة الجمعية

"أيديولوجية" لفظ معرب ذائع الاستعمال رغم عدم مطابقته قوالب الصرف العربي، دخيل على معاجم اللغات الحية، وصاغه المفكر "عبدالله العروي" على وزن "أفعولة"، "أدلوجة"، وتوسع في مفهومه الاصطلاحي بسبب مرونته، إذ يرى إنه يستعمل في أطار المنظومات الفكرية للسياسة، وتكون صفته من حيث السلب والإيجاب نسبية، حسب هوية المستعمل، وقد يستعمل في إطار الوعي الجمعي، حينما يتفق أعضاء المجتمع في الولاء لقِيَم مشتركة ومنطقًا واحدًا، ويستمر بفرش ارضيات المفهوم إلى أن يصل إلى أن الأيديولوجية مفهوم مزدوج وصفي ونقدي.[٢] كما قدم اللفظ لأول مرة مفكرو التنوير في القرن الثامن عشر، ليدل بمعناه الواسع على دراسة أصل الأفكار، ثم أُطلق على أي نظرية أو خطة سياسية ثورية أو متطرفة، تولّد حالة من الوعي الزائف لدى جميع أولئك الذين يعيشون في إطار فهمها للواقع، خدمة للطبقة السياسية الحاكمة، ولم تبتعد كثيرًا عن فضاء هذا الاستعمال، إذ يمكن أن تحيل على مجموعة صريحة من المعتقدات السياسية، من طراز ايدلوجيا ليبرالية، أو محافظة، أو اشتراكية، وغالبًا ما يُفترض أنها متصارعة، كما يمكن أن تشير إلى أنظمة أوسع من المعتقدات والأفكار والمواقف التي لها مضامين مباشرة في الالتزامات والأفعال السياسية.[٣]

ومن هذا المنطلق للأيدلوجية، وصفت "حنة أرندت" المنظومات الفكرية للسلطات القمعية والعدوانية، ورسّخت لها مصطلح " التوتاليتارية"، "الشمولية" في كتابها الرائد "أسس التوتاليتارية"، القائم على تفكيك محنة العالم مع النظامين الشموليين "المانيا النازية" و"روسيا ستالين".[٤] وفيه كشفت عن الأسس الفلسفية التي اتخذتها تلك الأنظمة آنذاك، وكيفية صعودهم وتفردهم بالسلطة ونشر أيديولوجيتهم التي سيطروا بها على جوانب الحياة الروحية والدنيوية بادعاءاتهم امتلاك الحقيقة المطلقة لمصالح المجتمع.

ويمكن عدّ "الايديولوجية الشمولية" منظومة فكرية تؤسس شرعية الهيمنة للسلطة الحاكمة، لتطبيق مبادئ الخاصة على العامة، أي شمول الكل بمبدأ الجزء. و"يتم خلالها القضاء على كل أشكال المقاومة، وتصفية الخصوم من داخل البلاد، سواء الحقيقيين منهم أو الوهميين. ثم يتشكّل لدينا المبدأ، المتمثل برفض الاستقلال الذاتي، وإلغاء الحرية، وإخضاع كافة الأفراد إلى السلطة المطلقة التي يمكن ضمانها عن طريق ممارسة أعمال الإرهاب والقمع."[٥] فضلا عن ذلك، استخدامها أداة خفية، ليست واضحة للأغلبية. إذ "كشفت الأنظمة الشمولية التي انتشرت في القرن العشرين عن خطرٍ لم يكن في الحسبان سابقًا، ويتمثل بالاستحواذ الكلي على الذاكرة."[٦] بوصفها القوة الداخلية المهيمنة على فكر الانسان، وخاصة الافراد الذين يطغى عليها الحس الجماعي، كالانتماء العرقي والقبلي والمذهبي، وغالبًا ما تستلهم هذه الفئة من الإفراد هوياتهم؛ بشكل عفوي وتقليدي متوارث، لم تتغذَ بمعايير الشراكة والمصلحة العامة. لذا يتم استغفالهم ونهب عقولهم، بالهيمنة على ذاكراتهم. كما "لا تنطوي الهيمنة على مجرد سعي لاستحصال تأييد المجموعات... بل إنها سعي أيضا لتوليد مجموعة من الاساطير التأسيسية التي تؤسس لمخيال وطني معين"[٧] فحسب النظام المطلق لا ينبغي أن تكون هناك أكثر من هوية واحدة للسلطة، فهي من تختار للأفراد تأريخهم، وطقوسهم، وأفكارهم، وسياستهم اتجاه الآخر. "فأية محاولة لمزاولة الاستقلالية الفردية، سواء على المستوى الفكري أو العملي، تؤول إلى الفشل، كون الحزب الحاكم وحده، صاحب الرأي السديد."[٨]

وقد عمّد حزب البعث إلى هذه السياسة طوال فترة حكمه، رغم العمق الحضاري المتنوع في العراق، الذي ينادي بضرورة تأسيس منظومة سياسية تستوعب اختلافات البنية المجتمعية المركبة،

من حيث العرق والدين واللغة. إلا أن حزب البعث قد تبنى سياسة النظام الشموليّ، القائمة على مبدأ الحزب الواحد، والقائد الواحد، والايديولوجيا الواحدة. ومن ثمة تكريس عمل المؤسسات في ترويج دعاية تلك المبادئ وترسيخها لترويض المجتمع. "ومن خلال العديد من الطرق الفاعلة، يتكامل كل من الإنتاج الثقافي وكتابة التاريخ الخاضعين للرقابة الرسمية مع استخدام الدولة للعنف، حيث تسعى النخب المهيمنة، عن طريق استغلالها لمحتوى الذاكرة التاريخية المسيسة إلى منح الامتيازات لتلك الفئات التي تناصرها بينما تهمش أولئك الذين تعتبرهم خصومها الفعليين أو المحتملين."[٩] مستهدفة السرديات الكبرى التي تحملها الجماعة المناصرة. وبذلك فهي تتجه نحو بناء هوية سردية للدولة والمجتمع "وهي حكايات حياة الشعوب والأمم؛ حكاية الآمال التي أسستها الجمعات وشكلتها في عمليات تأويل مستمرة للوقائع التاريخية. إن ذاكرة شعب ما محكومة بهذه الهوية السردية، التي تشتغل على الماضي، ومحكومة، أيضا، بالوعود المفتوحة على المستقبل، والتي ترنو الجماعة دائما إلى تحقيقها وإنجازها."[١٠] وتنشأ هذه العملية داخل ما يسميه لوي ألتوسير بـ" أجهزة الدولة القمعية " و"أجهزة الدولة الأيديولوجية" إذ تتولى الأولى مهمة الهيمنة من خلال العنف والقمع والترهيب، عبر مؤسسات الدولة العسكرية، فيما تعمل الثانية بشكل خفي على إضفاء مشروعية ممارسة السلطة، وإعادة تشكيل هويات الأفراد وصياغة الوعي الجماعي والذوق العام، من خلال الطقوس الاحتفالية، والأعياد والمناسبات العامة، القائمة على سرديات مخصوصة مختارة من قبل الجماعة الحاكمة، لإقناع الفرد بأن هذه الأحداث التأسيسية هي كينونة هوياتهم.[١١]

إنَّ الحرص الذي لازم "عبد الله إبراهيم" في سرد تفاصيل تلك المرحلة، وخرقه التجنيس السردي في العنوان الموازي "سيرة عراقية" بدلًا من "سيرة ذاتية"؛ يكشف لنا مدى تأثير هيمنة السلطات على ذاكرة الأفراد، واختياراتهم الشخصية.[١٢] إذ تتلاشى كل من الأهداف والرؤى والتطلعات الخارجة عن إطار المنظومة الفكرية للسلطة الحاكمة؛ بعد السيطرة التامة على ذاكراتهم الجماعية، وتحديد المسالك الرئيسة لصلاحيتها في التذكر والنسيان. أي حيازة محتويات الذاكرة، والعمل على تسويغها بما يخدم أهداف السلطة. وبما أن الذاكرة وعاء لكينونة الانسان التاريخية والدينية والثقافية. فالعمل على إعادة انتاج تلك المكونات هو من أولويات السلطة في فرض آيدلويجيته الشمولية.

اولًا : السطوة على التاريخ

يمثل التاريخ بما يحمله من وقائع راسخة ومؤثرة في وجدان الأفراد والجماعات، مصدرًا أساسيًا للسلطات الطامحة في الحكم والسيطرة التامة، بوصفه القوة الخفية لفرض الهيمنة والطاعة كما ذكرنا سالفًا. من خلال استعارة احداث ماضية بطريقة انتقائية وقصدية، والعمل على ترسيخها في وعي الجماعة المستهدفة. وهي الطريقة عينها التي استخدمها "حزب البعث" في فلسفته، القائمة على احياء الموروث التاريخي، وأهمها الايديولوجيا القومية العربية التي تمتد جذورها إلى الحقبة الذهبية في العصر العباسي.[١٣] الذي تبناها صراحة في شعاره الرئيس" امة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة" الذي رُفع ردًا على سيرورة التاريخ، التي افضت إلى هيمنة الامبراطورية العثمانية على البلدان العربية، وما تلاها من احتلالات وتقسيمات حدودية، ويدعو إلى ضرورة العودة إلى ما قبل تلك الحقبة

للنهوض مجددًا. كما وضح الشعار ميشيل عفلق بقوله "وهو يعني أن الامة العربية واحدة، فلا تعترف بهذه التجزئة المصطنعة العارضة. واننا نسعى إلى تحقيق هذه الوحدة ليس في الارض فحسب بل

أيضا في الروح والاتجاه. أما الرسالة الخالدة فالقصد منها أن هذه الأمة لا تعترف بواقعها السيء وموقفها المنفعل ولا تتنازل عن مرتبتها الاصيلة بين الامم ... فهذه الامة التي أفصحت عن نفسها وعن

شهورها بالحياة افصاحا متعددًا متنوعا في تشريع حمورابي وشعر الجاهلية ودين محمد وثقافة عصر المأمون، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الازمان ولها هدف واحد بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف"[١٤] وبعيدًا عن التباين الجزئي بين متبنيات كل مجموعة قطرية لأهداف حزب البعث، هنالك اتفاق شبه جماعي على هذا المنطلق. الذي نتخذه مفتاحًا لكشف ممارسات حزب البعث العراقي، وخاصة مساره بعد عام ٦٨ من القرن العشرين. واجراءاته في فرض تلك الايدلوجية على مجتمع ذو هوية تعددية.

شهد عبد الله إبراهيم عملية تطبيق المنطلقات الفكرية التي تبناها حزب البعث في العراق واقعيًا، بعد سيطرته على زمام السلطة. إذ بدأ الحزب مشروعه في تطويع ذاكرة المجتمع لصالح مبادئه، ضمن عملية (إعادة كتابة التاريخ)، ورسم هوية جديدة للعراق، قائمة على الوحدة في الحكم، ومنع الحريات الداخلية والانغلاق الخارجي، والاشتراكية بالطاعة العمياء وخوض الحروب العبثية. يقول: "جرت تنقية للحاضر والماضي، فأعيدت كتابة التاريخ بما يوافق الرؤية الشمولية، وتشكلت هيئة من كبار المؤرخين، عرفت بـ((هيئة إعادة كتابة التاريخ)) وأصدرت مجلدات عدة حول تاريخ العراق، وفسرت كل الحوادث التي شهدتها شعوب بلاد الرافدين منذ السومريين إلى عصر صدَّام، طبقًا لرؤية شحيحة، وفرضت تأويلًا لا يفي بالتنوعات الثرية للبلاد التي عرفت طبقات متفاعلة من الأعراق، والديانات، والثقافات، واللغات، وروَّجت الكتب المدرسية لأيدلوجيا بلا أفق. فرض مقرَّر دراسي بعنوان ((الثقافة القومية)) في الجامعات العراقية، وفيه دُرس فكر حزب البعث وتاريخه اعتمادًا على تقارير المؤتمرات القومية والقطرية، وأُوجب دراسة مقرَّر آخر بعنوان ((الحضارة العربية)) وفيه رسم كفاح أمة نقية الدم لا تنوّع فيها. كتب المقررات أعضاء في القيادة القومية للحزب، ودرَّسها أعضاء به لا يشترط حصولهم على الشهادات العليا، ولم يتدربوا على المناهج الأكاديمية والنقدية، ويُلقَّنها الطالب الجامعي لأربع سنوات."[١٥]

صنع حزب البعث مسارًا خاصًا للتاريخ وفقًا لتصوراته، بعيدًا عن الموضوعية، واتخذ طريقة انتقائية لأحداث معينة من تاريخ العراق، ليعزز بها غاياته السياسية. فإعادة بعث الهوية القومية العروبية، والعمل على استذكراها، ما هو إلا تبريرًا للتفرد في السلطة، وإضفاءه شرعية الإقصاء للأعراق الآخر. كما لجأ إلى إثارة الاستعلاء الخارجي في وعي المجتمع، وضرورة استنساخ التجارب الحربية التي قامت بها حضارة سومر وبابل وآشور. إذ ذهب حزب البعث، إلى أن التاريخ يجب أن يعيد نفسه، ويكون الشعب أداة لينة له، بصرف النظر عن مدى أمكانية تطبيق مقولاته، والاضرار الناتجة عنه. فالمهم أن يأخذ المجتمع برواية تاريخية تصوغ هويته الجماعية، تبعًا لما تريده السلطة، لضمان طاعتها في الخيارات السياسية داخليًا وخارجيًا، وقد تحقق ذلك نسبيًا. يقول: " كنت آنذاك آخذًا

برواية المجد العراقي المتجذّرة في تاريخ عمره ستة آلاف سنة، فقد لُقنتُ الرواية القائلة بأن بلادي وريثة مجد الرافدين، وهي سهل تهفو إليه أطماع الآخرين من كل الجهات، فقد غُزيت من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب، ولا يصونها إلا حكم قوي قادر على صهر مكوناته المتناقضة ليجعل منها مجتمعًا متجانسًا. لكنني لم أرغب في أن تكون القوة تمهيدًا للاستبداد، ومدخلًا للعدوان على الآخرين"[١٦]

إذ يبين عبد الله إبراهيم في وقت ما من تلك المرحلة، كيف كان من بين الضحايا الذين تمكنت السلطة من الاستيلاء على ذاكرتهم بأساليبها الملتوية، والخطابات الرنانة التي تدعو للوحدة ورفع حيف الاستعمار. وقد عمل "صدام حسين" وقبل تسلمه زمام السلطة في البلاد، على تكريس مهامه في فرض مفاهيم الهيمنة بشكل خفي ومعلن، فمزج بين اساليبه التي تهدف إلى ترويض ذاكرة الشعب، بخطوات تحظى بمقبولية شعبية، وأخرى عدوانية تسعى لغرس الخوف والترهيب. يقول: " إبان تلك السنوات بدأ طيف صدَّام حسين يلوح في أفق العراق زعيمًا فاعلًا. قاد مفاوضات تأميم النفط، والضغط على الشركات الأجنبية، ونجح فيها، وطرح حلًّا للقضية الكردية باقتراح الحكم الذاتي للكرد داخل العراق، والاعتراف بحقوقهم الثقافية والسياسية، وجرت مفاوضات سرعان ما تعثَّرت، ثم انهارت. واستثمر أحداث حرب أكتوبر، فأوقد في النفوس جذوة الكبرياء القومية إلى حدودها القصوى. كان شابًّا جذابًا وأنيقًا متفائلًا، لفت الأنظار إليه كونه لا يعرف المداهنة، وأكسبه ظهوره المتواصل إلى جوار الرئيس البكر موقعًا مهمًا في الدولة والحزب، فظهر للأغلبية مفعمًا بالطموح الوطني، والتغيير... وما لبث أن استقام ماردًا مكابرًا، وقد تسلط العناد عليه، فتمردت صورته على الإطار الذي أحكم صنعه أول أمره. وكان أفقي محدودًا كأي مراهق في مقتبل عمره، يُعجبُ ولا يعرف." لأن هناك تعارضات يستحيل الجمع بينهما في رؤية الحزب المشوهة، فالرجوع إلى بداية تاريخ العراق، يتعارض من فكرة القومية، لأن الثانية ترتكز في مشروعها على العرق العربي فقط، بينما تشمل الأولى أعراق لجماعات لازالت حية، لها لغتها وثقافتها وطقوسها الخاصة، وهذه المفارقة كشفت وهم المطابقة التاريخية المفترضة لإعادة امجاد الماضي. إذ بدأ حزب البعث بفرض الهوية العربية القومية على فسيفساء المجتمع العراقي. فاستهلها بالتغيير الديموغرافي للمدن ذوات الهويات المتعددة، وأهمها كركوك، المدينة التي نشأ فيها عبد الله إبراهيم، وهي من المدن التي لها حدود مع المدن ذات الاغلبية العربية، والمدن ذات الاغلبية الكردية، ولعل هذا السبب ما جعل سكانها مزيجا بنسب متقاربة بين العرب والاكراد والتركمان.

يقول حول عملية توحيد هوية المدينة "بدأت سياسة تعريب كركوك في سبعينيات القرن العشرين، فزرعت الخوف بين الأكراد والتركمان، وأثارت استياء العرب الأصليين فيها، فقد جِيءَ بأعداد كبيرة من عرب وسط العراق وجنوبه، وأسكنوا في المدينة، أو ضواحيها، وفي بعض المناطق حلُّوا محلَّ أهلها. وحينما استبدَّت بالأكراد الأفكار القومية اعتبروا المدينة كردية، وقد أثار سعيهم إلى تكريدها، بدفع أعداد كبيرة من الكرد إليها بعد الاحتلال الأمريكي في عام ٢٠٠٣، مخاوف التركمان من طمس ما يذهبون إلى أنه هوية تركمانية للمدينة؛ كونهم يمثلون الكتلة الصلبة منذ وقت بعيد، ... شهدت كركوك إحلال غرباء فيها وإبعاد أصلاء عنها، مما أحدث فوضى اجتماعية محت هويتها المتنوعة. ... حدث الأمر بسبب التنازع القومي حول المدينة بدواعٍ لها صلة بالسُّلطة والثورة والهوية؛ ولأجل ذلك وقع تزوير المرويات، وتلفيق الأصول."[١٧] نتج عن عملية الاستأثار السلطوي صراعًا مستديمًا بين القوميات، صعبت السيطرة عليه فيما بعد، وأصبحت كركوك مثالا لدحض فرضية السلطات التي

تؤسس هويتها على عرق معين وتهمش الأعراق الأخرى، حتى لو فرضت بالقوة، كما فعلت كل من السلطة الكردية والمركزية العربية بالتناوب. بقيت جمرة الشعور بالتهميش حاضرة في وعي ولاوعي الجماعة المهمشة، وتشتعل بين حين وآخر ما أن سنحت لها فرصة، ولهذا بقي الصراع مع تغيير الحكومات؛ بسبب استراتيجية السلطات التي تعتمد سياسة التذكر الجماعي القائم على سرديات جماعة دون أخرى. يقول: " وضع النظام قادة الكرد في رتبة الأعداء، ووصف مقاتليهم بالمخربين، وهم بدورهم لم يخفوا نوازع الانفصال عن العراق بذرائع الحقوق القومية في إقامة دولة كرستان المستقلة،

لكن تلك الفكرة كانت غير معلنة ولا ذكر لها إلا في بعض الأدبيات الكردية. وتفاقمت الكراهية، وتعمق سوء التفاهم، وتعثر التعايش، وتقاتل الطرفان في أعالي الجبال، وهو تطوير للنزاع المندلع منذ أوائل الستينيات بين الدولة والكرد."[١٨] فبدل أن تسع السلطة المركزية المتمثلة بحزب البعث إلى احتضان جميع القوميات والحركات السياسية، وإشراكها فعليًا في نظام قائم على مصلحة الشعب؛ سعى إلى العنف والتهميش والإقصاء بحق من لا يتفق مع رؤيته.

يقول: " لقد جرى طمس الأقليات غير العربية، وهي كثيرة في العراق، وصار أمر تغييب صور الاختلاف هاجسًا حاضرًا في التعليم، والثقافة والقوانين، والتُهمت الأقليات العِرقية، والدينية، وثقافتها، وجرى تطهير عِرقي لبعضها، وطُردت أخرى من البلاد استنادًا إلى ذرائع مختلقة فرضتها الولاءات العابرة أيام الصراع بين الدولتين العثمانية والفارسية، كما فرضتها علاقات التجاور والتعايش المتينة للناس عبر الحدود العراقية الإيرانية، وأُخذ بفكرة صهر المجتمع في بوتقة واحدة، وإهمال طبيعته المتنوعة."[١٩]

جاءت هذه الممارسات ضمن محاولات السلطة للتماهي مع حقبة تاريخية كانت هوية الدولة فيها موحدة، وهذا يعني قطع سيرورة التاريخ العراقي بما يحمله من تغيرات ثقافية واجتماعية وسياسية، حصلت بعد وقائع جسام، فرضت تغير في بنيته الحالية. وكان للسلطة أن تتعامل مع الوضع بما هو عليه، وتحاول استيعاب تلك التغيرات، لا أن تُسقط افتراضات تاريخية، وأن كانت تلك الافتراضات قد شهدت النجاح في مرحلة ما، فلا حُجة بأن تكون صالحة لكل زمان.

ثانيًا: الاستئثار بالهوية العربية القومية

وفي إطار حديث "عبد الله إبراهيم" عن الممارسات الداخلية التي قام بها حزب البعث بدوافع القومية. ترحيل "الأكراد الفيليَّة" وإسقاط هوياتهم العراقية، ضمن محاولات تأمين هيمنة العرق العربي، وطمس الأعراق التي ممكن أن تتعارض مع مشروع إعادة بناء هوية الدولة العروبية، رغم أنها تشكل أقليات متفرقة في العراق. يقول: " اختلف في أصول ((الفيَّلية)) بين كونهم فُرسًا أو كردًا، أو مزيجًا منهما، أو أنهم شعب قائم بذاته، وطبقًا لكثير من المؤرخين فهم بقايا العيلاميين أو الكوتيين في المناطق المحاذية لإيران وسط العراق وجنوبه، ومعظمهم من الشيعة ويتكلّمون الكردية باللهجة اللورية. أبعد معظمهم عن العراق في ضوء أيدلوجية تدَّعي فكرة الولاء للوطن، ففي السابع من أيار/ مايو ١٩٨٠ صدر قرار مجلس قيادة الثورة رقم ((٦٦٦)) بتوقيع صدام حسين، ونص على اللآتي: (( تُسقط الجنسية العراقية عن كل عراقي من أصل أجنبي إذا تبيَّن عدم ولائه للوطن، والشعب، والأهداف القومية والاجتماعية العليا للثورة.)) "[٢٠] إذ عمل حزب البعث على تقنين التهميش العرقي، وجرى

تعميم فكرة عدم الولاء والخيانة، على أعراق ينظر إليها على أنها دخيلة، شبيه بالحركة الشعوبية إبان العصر العباسي، وهي خطر يهدد استدامة المشروع السلطوي، وينبغي اجتثاثه وإيهام الجماعات الموالية لاستراتيجية النظام، بأن السلطة، حاملة لواء المجد الوعود، والمدافعة عن الحقوق المسلوبة، وقد حان الوقت لتصفية جسد الأمة، من الغرباء الذين فرضتهم سياسة الاستعمار. "ولم يأخذ في الحسبان بأن فكرة العراقي-الأجنبي لا معنى لها؛ فالعراق ورث التركة العثمانية والفارسية، وتداخلت فيه الشعوب لظروف تاريخية انتهت منذ بداية القرن العشرين، وبعد ترسيم حدوده إثر الحرب العالمية الأولى عَلِقَت جماعات في إيران وتركيا والعراق ترتبط بأصول عِرقية مختلفة، واندمجت في النسيج

العراقي أو الإيراني أو التركي، وقد آن الأوان لإحياء نزعة تصفية المجتمع من شوائب الماضي باعتبارات الولاء. هذا القرار نظير قرار((نورنبيرغ)) بإسقاط الجنسية الألمانية ذوي الأصول اليهودية في عام ١٩٣٥"[٢١] يشير عبد الله، بإشارة دقيقة إلى أن أساليب الأنظمة الشموليَّة لا تختلف في شرعنة الهيمنة والانكفاء الذاتي. نظرًا لقصور الرؤية في استثمار التغيرات التاريخية لمصلحة المجتمع، أو تغييبها عمدًا لعدم صلاحيتها في تسيير سياسة الاقصاء. فلم تنظر السلطة على أن هذه الأعراق من منظور الموارد البشرية التي ممكن أن تخدم العراق اقتصاديًا واجتماعيًا، وأنها أصبحت جزء من العراق وتاريخه. بل نُظر لها بأنها امتدادًا لمطامع خارجية، ولكي تبرهن ولائها لمشروع الحزب وجب

تغير هويتها العِرقية، وإلا انتفت عنها صفة المواطنة العراقية. يقول: "صار ادعاء العروبة لعبة سمجة، وكثير من العشائر غير العربية اصطنعت لها نسبًا عربيًا، وأصبح أمر تبديل الأعراق يتحدَّد في ضوء التطورات السياسية للبلاد، فانتسب كثير من التركمان والأكراد إلى العروبة حماية لأنفسهم، وصدر تشريع سُمي ((قانون تصحيح القومية)) وهو يوفّر حماية لكل من يغير قوميته إلى العربية... وقد غير كثير من أهالي المدن المختلطة، قومياتهم؛ لأن دوائر التمليك منعت شراء العقارات لغير العرب، فكانوا يضحون بأعراقهم كيلا يُهجروا من مدن سقطت رؤوسهم في ترابها، وفيها أُسرهم، وأملاكهم، وذكرياتهم، وإليها ينتمون"[٢٢]. وهكذا خُيل لحزب البعث إحراز انتصارات في محو الذاكرة التاريخية لجماعات إشكالية في نظره، ولم يأخذ بالحسبان الطريقة العدوانية التي صاحبت عملية الطمس، فهو بذلك يؤسس لذكرى ساخنة تحرك وعيهم اتجاه هويتهم المسلوبة كلما ضعفت السلطة، التي فرضت عليهم النسيان. وقد تحقق ذلك واقعيًا اثناء الحربين مع إيران والكويت، فانتهزت الجماعات التي كانت ترائي النظام بطاعتها، فرصة انشغال النظام في الحرب، فحاولت إسقاطه في تلك الأوقات، بما اصبح معروف فيما بعد، بحادثة الدجيل، والانفال، والانتفاضة الشعبانية.

كما تعكزت السلطة على تضخيم وترسيخ فرضية (المؤامرات الخارجية)، التي تحيط بالعراق منذ فجر التاريخ. وقد غُذيت تلك القضية بسرديات تاريخية حسب ما يتطلب الوضع من تأويل، يخفف من الاستياء الشعبي، ويستميلهم إلى إضفاء شرعية على أفعال النظام. ويكشف عبد الله إبراهيم، استغلال السلطة لهذه الدعاية في حرب العراق مع إيران والكويت. فعن الأولى يقول: " وعلى خلفية من قتال عابر للحدود راح العراق ينشر ُحججًا تثبت حقوقه التاريخية، وإنه دُفع إلى الحرب دفعًا من أجل استردادها، فيما وصمه الإيرانيون بأنه المعتدي عليهم."[٢٣]

لا يستطيع أحد أن ينكر الخلافات بين إيران والعراق لها جذور ممتدة في القدم، وكراهية متبادلة تتأجج بين الحين والآخر. وقد سعت كلا السلطتين إلى استثمار هذه الكراهية في تعبئة الحشود لشحن

حرب كر وفر سحقت بها مئات الآلاف من كلا الطرفين، وانتهت دون تحقيق ما بدأت لأجله. فالجانب الإيراني راهن على القضايا اللاهوتية في دفع مقاتليه إلى الحرب، وسنبينها بشكل اوسع في موضعها في البحث لاحقًا. أما الجانب العراقي فلم يعتمد على قضية واحدة في تعبئته للحرب، وإنما تنوع في اختلاق الأسباب، لكسب تأييد أغلبية بشرية من شعب متعدد الهويات. فقد بدأ مدافعًا ضد مطامع ثورية ذو طابع ديني، وقد كسب بهذا التوجه نسبيًا قبول الجماعات ذوات التوجهات اليسارية والمدنية. يقول: " شَخَصتِ المواجهة مع إيران على أنها منازعة بين ثورة قومية علمانية حديثة، وأخرى دينية تريد إحياء لاهوت القرون الوسطى في الحكم، فأخذت أنا بهذا التفسير مدة طويلة."[٢٤] ولكن ما ان لبث النظام برهة من الزمن ورأى أنه في موضع تفوق في الحرب، استبدال خطاب التعبئة، وتحول من

موضع الدفاع ضد مطامع غازية، إلى قوة تسعى إلى استرجاع حق تاريخي مسلوب، متمثل في إقليم عربستان، الإمارة العربية التي استولت عليها إيران في الربع الاول من القرن العشرين. يقول: " انطلق وعدٌ عراقي بتحرير جزء محتل من أرض العرب. لامس النداء البطانة القومية في مشاعري، فانتعشتُ مزهوا، ونقبت في طيات التاريخ؛ فوجدت أن عربستان هي إمارة الأحواز العربية ... وفيها أربعة ملايين عربي، وفيها أكثر من ثلاثة أرباع ثورة إيران النفطية."[٢٥]. لم تكن تلك المطالب موجودة قبل بدأ الحرب، وإنما أوجدت أثناء الحرب لترسخ شرعيته، وتكسب القبول الشعبي وتدفعه إلى نسيان المآسي المصاحبة له. فلم تبدأ الحرب لأجل حق تاريخي، وإنما أُحيت تلك المسألة لديمومة الحرب، واستمالة البلدان العربية وكسب دعمها. يقول: " بعد أقل من سنة تحوَّل الاستقطاب القديم، العراقي-الإيراني، إلى استقطاب قومي-ديني على بطانة مذهبية، يقود الأول صدَّام باعتباره زعيمًا

عربيًّا مدافعًا عن الحق العربي، ويقود الثاني الخميني باعتباره قائدًا دينيًّا مكلفًا بنشر الإسلام في كل مكان"[٢٦] فالحرب بما أنها أسوء ما قد يواجه الشعوب، وخاصة إذ كانت القوة بين الجانبين متقاربة فنيًا، كما في الحرب العراقية-الإيرانية، تحتاج إلى اختلاق موجهات روحية أو تاريخية، تحرك الجيوش وتعمل على ديمومة الحرب. يقول: " وحينما اقتحم الجيش العراقي الأراض الإيرانية، توارت عن الأنظار معظم الخلافات التي استمرت أكثر من سنة فوقائع الحرب ابتلعت أسبابها، وكلَّما تقدمت الحرب خطوة كانت تختلق لها أسبابٌ جديدة. غذَّى هذا الرصيد المتنوع من الأسباب لعبة الحرب، واعتبر دعامة لفلسفتها طوال السنوات الثماني التي استغرقتها لدى عدد كبير من العراقيين."[٢٧]والحقيقة أن تلك الحرب، لم تكن إلا لأجل الحرب، وسعيًا من كل الدولتين إلى إظهار قوتها وتفوقها إقليميًا وعالميًا، فقد انتهت ولم تتحقق أية مطالب اختلقت لأجلها. يقول: " ولم يخرج منها الطرفان بأية عبرة سوى تعميق الجراح، وسوء التفاهم، بين أكثر شعوب الأرض تلازمًا في الدم، والثقافة، والعقيدة، فقد أُوقدت جذوة نار تاريخية-مذهبية، نفخ فيها الأشرار كثيرًا، فأصبح من المتعذَّر إخمادها في المدى المنظور."[٢٨]

ذاق العراق بعد حرب إيران الأمرَّين؛ فشله في تحقيق المطالب التي راهن عليها طوال الحرب العبثية، والأزمة الاقتصادية الحانقة؛ نتيجة الديون المتراكمة، وتراجع إيرادات النفط، وازدياد معدلات البطالة والفقر، وركود الإنتاج. وبما أن فكرة الحرب والعنف متجذرة وأساسية في منهج حزب البعث، شأنه شأن كل الأنظمة الشمولية. قائمة على فكرة الصراع المقتبسة من المذهب الداروينى، وتطبيقها كقانون شامل على الحياة والتاريخ لتصبح الحياة هي السياسة والسياسة هي الحرب.[٢٩] عاودت

السلطة العراقية العزف على لحن قضية (المؤامرات الخارجية) لتتملص من تبعات خياراتها السياسية الواهمة، وإعادة التوازن الداخلي قبل أن يخرج عن السيطرة، وقد تهيأت له كل الأسباب. وربما رأت السلطة العراقية آنذاك الحرب على الكويت قد يكون مخرجًا للأزمة بأقل الأضرار، نظرًا إلى قوة العراق العسكرية التي تتفوق عشرات الأضعاف على دولة حدودية غنية، صغيرة المساحة. فبدأ بشحن عواطف المجتمع، واستثمر بذلك التصرفات الفردية من الكويتيين الأثرياء وتفاخرهم بالنيل من بعض البغايا تمتعًا واستعلاء. يقول عبد الله بعد شهاداته على تلك الأفعال يقول: "فمن الراجح أن العراقيين شحنوا باستفزازات بعض المُثرين الكويتيين الذين كانوا يسارعون إلى البصرة وبغداد طلبًا للمتع المعلنة بأموالهم، فتوهَّم كثيرون أنه سلوك مقصود، كما ورد في شهادة صدَّام، وليس مجونًا مخصوصًا بأفراد منفلتين"[٣٠] فكان خطاب السلطة يدور حول غرس فكرة مؤداها، إضمار الكويت العداء للعراق، ونهب خيراته، في محاولة منه لتغطية خسائر حرب إيران الاقتصادية، وصرف النظر عن العجز والتضخم الذي ضرب صميم قوت الشعب. يقول" صُور للشعب العراقي أن الكويت تتعمَّد تدمير اقتصاده، واتهمت بسرقة ما قيمته نحو مليارين ونصف المليار دولار من نفط ((الرميلة)) إبان الحرب مع إيران، وأنها ألحقت كثيرًا من حقول النفط العراقية بها... نجح النظام في دغدغة عواطف العراقيين، وصوَّر لهم أن أزمتهم مصدرها الكويت... رجحت أن صدام وقع ضحية سياسات اللوم التي تأصَّلت في نفسه منذ بدء الحرب مع إيران. فبدل أن يتولى حلَّ مشكلة خاصة به، يلوم الآخرين على أنهم السبب فيه."[٣١] يبين عبد الله إبراهيم، كيف تلاعبت السلطة في ذاكرة المجتمع قبل وأثناء وبعد الأزمات الداخلية او الخارجية، تلجئ إلى تفسيرات تاريخية جاهزة، في نطاق العودة إلى ما قبل مرحلة التغيير أو الاختلاط العرقي والمذهبي واللغوي، الذي أصاب الأمة، فتُوهم المجتمع بمدى نجاعة ممارسات السلطة في مقايسة الحاضر بالماضي التليد.

**الخاتمة**:

- نخلص إلى عدّ الأيديولوجية الشمولية بأنها منظومة فكرية تؤسس شرعية الهيمنة السلطة الحاكمة، لتطبيق مبادئ الخاصة على العامة، أي شمول الكل بمبدأ الجزء.
- نتيجة التحولات الكبيرة التي حدثت في القرن العشرين، ابتداء من الحروب العالمية، والتغيرات الجيوسياسية، والنتاجات الفكرية المنغلقة، نشطت الإيديولوجية الشمولية بين عدد كبير من الأنظمة السياسية، لاسيما في دول العالم الثالث.
- يبين عبد الله إبراهيم كيفية الأساليب التي مارسها حزب البعث ضد الشعب العراقي، بغية الهيمنة على جميع مفاصل الدولة والمجتمع، وكانت جميع تلك الممارسات تستند إلى الأيديولوجية الشمولية.
- كشف عبد الله إبراهيم عن كيفية تلاعب حزب البعث في السرديات التاريخية المتنوعة للمجتمع العراقي، بغية ترسيخ المبادئ الحزب وتعميمها على جميع افراد وجماعات الشعب.
- كشف عبد الله إبراهيم مساعي حزب البعث عبر ممارساته القمعية طمس جميع الهويات والأعراق غير العربية في العراق.

**الهوامش:**

[١] - استعمالات الذاكرة في مجتمع تعددي مبتلى في التاريخ: نادر كاظم، مكتبة فخراوي، البحرين، ط١ ٢٠٠٨: ٧.
[٢] - ينظر: مفهوم الإيدلوجيا، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي،المغرب، ط٨، ٢٠١٢: ٩، ١٢،١١،١٠.
[٣] - ينظر: مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، طوني بينيت وآخرون، ت سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، ط الاولى، بيروت، ٢٠١٠: ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧.
[٤] - ينظر: أسس التوتاليتارية: حنة أرندت، ت انطوان أبو زيد، دار الساقي، بيروت، ط الثانية ٢٠١٦: ١٢،١١.
[٥] الامل والذاكرة: خلاصة القرن العشرين، تزيفتان تودوروف، ت نرمين العمري : ٦٤.
[٦] - المصدر نفسه: ١٥٧.
[٧] - مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث، إريك دافيس، ت حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت- الصنايع، ٢٠٠٨: ١٣.
[٨] - الامل والذاكرة، تودوروف: ٢٨.
[٩] مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث، إريك دافيس: ١٨.
[١٠] سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، عبد الغني عماد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١/ لبنان-بيروت ٢٠١٧: ١٥٢.
[١١] ينظر: الهوية والسرد، نادر كاظم، دار الفراشة للنشر والتوزيع، ط٢/الكويت ٢٠١٦: ٧٩، ٨٠ .
[١٢] ينظر: ذاكرة "الامواج" العراقية: قراءة في السيرة الذاتية- العراقية للدكتور عبد الله إبراهيم، لطفية الدليمي، مقال/المجلة الثقافية الجزائرية.
[١٣] ينظر: مذكرات دولة، السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث، إريك دافيس: ٢١
[١٤] في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة، ميشيل عفلق، ج/١ : ١٠٥، ١٠٦.
[١٥] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، قطر-الدوحة، ط١ ٢٠١٧: ٣٩٧ .
[١٦] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ١٩١، ١٩٢.
[١٧] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ١٧.
[١٨] المصدر نفسه: ٧٥.
[١٩] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ٤٠٠.
[٢٠] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ١٢١ .
[٢١] المصدر نفسه: ١٢١، ١٢٢.
[٢٢] المصدر نفسه: ٣٩٩، ٤٠٠.
[٢٣] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ١٣٢.
[٢٤] المصدر نفسه: ١٢٢.
[٢٥] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ١٢٩.
[٢٦] المصدر نفسه: ١٢٤.
[٢٧] المصدر نفسه: ١٢٨.
[٢٨] المصدر نفسه: ٢٣٧.
[٢٩] ينظر: الأمل والذاكرة: خلاصة القرن العشرين، تزيفتان تودوروف، ت نرمين العمري: ٤٩.
[٣٠] أمواج، سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم: ٢٧٩.
[٣١] المصدر نفسه: ٢٧٧.

المصادر والمراجع


- أمواج: سيرة عراقية، عبد الله إبراهيم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، قطر-الدوحة، ط١ ٢٠١٧
- استعمالات الذاكرة في مجتمع تعددي مبتلى في التاريخ: نادر كاظم، مكتبة فخراوي، البحرين، ط١ ٢٠٠٨.
- سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، عبد الغني عماد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١/ لبنان-بيروت٢٠١٧.
- مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، طوني بينيت وآخرون، ت سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، ط الاولى، بيروت، ٢٠١٠.
- مفهوم الإيديولوجيا: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي،المغرب، ط٨، ٢٠١٢.
- الهوية والسرد: نادر كاظم، دار الفراشة للنشر والتوزيع، ط٢/الكويت ٢٠١٦.
- مذكرات دولة، السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث: إريك دافيس، ت حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/١، بيروت- الصنايع، ٢٠٠٨.
- الامل والذاكرة، خلاصة القرن العشرين: تزيفتان تودوروف، ترجمة نرمين العمري، مكتبة العكيبان، ط١ ٢٠٠٦.
- في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة، ميشيل عفلق، ج١،ط١.
- السرد والهوية دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة : جينز بروكمي، ودونال كريو، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥.
- أسس التوتاليتارية، حنة أرندت، ترجمة انطوان أبو زيد، دار الساقي، بيروت، ط٢ ٢٠١٦.

الدوريات والمراجع

- ذاكرة "الامواج" العراقية: قراءة في السيرة الذاتية- العراقية للدكتور عبد الله إبراهيم، لطفية الدليمي، صحيفة المدى، ع:٤٠٢٨، ٢٠١٧: ٩. https://almadapaper.net/flipnews.php?id=Issue٤٠٢٨&pdf=٢٠١٤٢٥%&